

نعمة المال وكيفية شكرها

وأما نعمة الثروة.. ونعمة المال، فهي التي ينبغي أن يعرف الإنسان قدرها؛ فإن الله - سبحانه وتعالى - { يعطي الدنيا من يحب ومن لا يحب، ولا يعطي الدين إلا من أحب } ؛ فإذا أعطاك الله -تعالى- شيئا من الدنيا، فلا تعتقد أن ذلك لشرفك، ولفضلك؛ ولكن اعتقد أنه من الاختيار والامتحان: هل تشكر ما أعطاك الله أم تكفر؟ فإن شكرت.. فهنيئا لك، وأبشر بالزيادة، وإن كفرت.. فإنك متعرض لإزالة هذه النعمة ولذاتها. تذكر أن ربنا - سبحانه - قد أعطى الدنيا أناسا، فكفروها، فسلبت منهم أحوالهم ما كانوا إليها، تذكر قصة قارون الذي يضرب به المثل في كثرة أمواله، أتاه الله كنوزا وذخائر؛ حتى إن المفاتيح -مفاتيح الخزان- إذا جمعت، يعجز عن حملها عصبة من الرجال: { مَا إِنَّ مَعَاتِحَهُ لَبِئْسَ لَشَيْءٍ بِالْعُمْيَةِ أُولَى الْفُؤَى } ؛ أي جماعة من أهل القوة يعجزون عن حمل مفاتيح تلك الخزائن. وماذا كانت حالته لما أن قومه وعطوه وقالوا: { لَا تَفْرَحْ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُفْرِحِينَ } ؟ أي لا يكون فرحك فرح أشرف، وفرح بطرف: { وَاتَّبِعْ فِيمَا آتَاكَ إِلَهُ الدَّارِ الْآخِرَةِ } أي أصرفه في الدار الآخرة، وأنفقه فيما يقربك عند الله تعالى: { وَلَا تَسْنُ تَصِيْبَتِكَ مِنَ الدُّنْيَا } أي تمتع بما أنت محتاج إليه، وبما يسد حاجتك وحتلك { وَلَا تَتَّبِعِ الْقَسَادَ فِي الْأَرْضِ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ } ماذا قال؟ قال: { إِنَّمَا أَوْتِيْتُهُ عَلَى عِلْمٍ عَنِّي } اعتقد أنه أوتي هذا المال على شرف، أنه أوتي؛ لأنه شريف، لأنه عالم. { عَلَى عِلْمٍ عَنِّي } أي: علم معرفة، وأعرف المكاسب، وأعرف التجارات، وأعرف كيف تصرف في الأمور، وأعرف كيف اكتسب المال؛ فجعل ذلك علامة على أنه على خير. هذه الكلمة فيها كفر لعلم الله -تعالى- ذلك اختارنا وامتحاننا، فلما لم يعترف بأن هذا اختارنا، وبأن المال يعطيه الله -الدنيا- من يحب ومن لا يحب { إن الله يعطي الدنيا من يحب ومن لا يحب، ولا يعطي الدين إلا من أحب } . لما أنه افتخر بأن هذا بفضل قوته؛ أي جمعت هذا المال بقوتي، وبذكائي، وبحكمتي، وبمعرفتي، وبخبرتي، وبجربتي، ولم يقل: الله -تعالى- هو الذي يسر لي ذلك، ولا هو الذي سهل ذلك الأسباب، لما أنه كفر نعمة الله، ولم يعترف بفضلها، عند ذلك عاقبه الله: { فَحَسْبُنَا يَوْمَ نَبْدَأُ الْأَرْضَ } خسف الله -تعالى- به، وبأملاكه، وجميع ما يذخره، خسف الله به الأرض؛ فهو يتجلجل فيها إلى يوم القيامة، وما نفعه ماله، ولا دفع عنه. وهكذا -أيضا- ذكر الله -تعالى- من أهل الدنيا قوم سبأ، قوم سبأ ذكروا في سورة سبأ في قول الله تعالى: { لَقَدْ كَانَ لِسَبَإٍ فِي مَسْكِئِهِمْ آيَةٌ جَنَّتَانِ عَنْ يَمِينٍ وَشِمَالٍ كُلُوا مِنْ رِيقِ رَبِّكُمْ وَأَشْكُرُوا لَهُ بَلَدًا طَيِّبَةً وَرَبِّ عَقُوبٌ } . ذكروا أن الأشجار يستظل بها الإنسان، ولو مسيرة يوم، أو يومين، لا يمسس شمس، إذا مشى تحت ظل الأشجار، وذكروا أن المرأة تجعل الزمبل على رأسها، وتمشي تحت الشجر، فتحرك الشجر، فتحرك أغصانه بذلك الزمبل؛ فيساقط له النمر؛ حتى يمتثل الزمبل من النمر دون أن تقتطف منه شيئا؛ ذلك لكثرته { بَلَدًا طَيِّبَةً وَرَبِّ عَقُوبٌ قَاعْرَضُوا } لما أنهم لم يشكروا نعم الله -تعالى- { فَقَالُوا رَبَّنَا بَاعِدْ بَيْنَ أَسْقَارِنَا وَظَلَمُوا أَنفُسَهُمْ } لما أنهم لم يشكروا نعم الله، { فَقَالُوا رَبَّنَا بَاعِدْ بَيْنَ أَسْقَارِنَا وَظَلَمُوا أَنفُسَهُمْ } مرفههم الله -تعالى- كل ممزق؛ أرسل عليهم السيل، فجرف بلادهم، وقلع أشجارهم، وقلع سدودهم، فتفرقوا أبادي سبأ. هذا من آثار كفر نعم الله -عز وجل-. لا شك أن ربنا - سبحانه وتعالى - فتح علينا في هذه الأزمنة، ما فتحه من الدنيا؛ وإن كان هناك كثير يشتكون الفلحة، والفقر، والفاقة؛ ولكن هناك -أيضا- جمع كثير عندهم أموال طائلة، وعندهم ما قد أنعم الله -تعالى- عليهم، وأعطاهم من المال ما هو زائد على حاجتهم، فليعلم أن يعترفوا بأن هذا فضل الله، وأن يشكروا على هذه النعمة، وأن يعتقدوا أن ذلك ليس لأجل كرامتهم؛ ولكنه من باب الاختيار، واختبار لهم وامتحان لهم، هل يؤدون شكره أم لا؟ فإذا أدوا شكره؛ فإن ربنا - سبحانه - يزيدهم منه، قال الله تعالى: { وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ وَلَئِن كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ } فأجرب أباهم أنعم عليهم، وأنه تاذن من شكر بالزيادة، إذا شكروا نعم الله؛ فإن الله -تعالى- ينبتهم عليهم، ويريدهم منها، ويسبغ عليهم نعمه؛ كما أخبر بذلك في قوله تعالى: { أَلَمْ تَرَوْا أَنَّ اللَّهَ سَخَّرَ لَكُمْ مِمَّا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعْمَهُ ظَاهِرَةً وَبَاطِنَةً } فليعلم أن يعترفوا بها، وأن يشكروا ربهم على ذلك. ثم نقول: كيف يكون شكر هذه النعمة؟ وكيف يكون كفرها؟ وذلك لأن الكثير يعملون أعمالا فيها شيء من كفران النعم، ولا يعتقدون أن هذا سبب في إزالتها، وأنه من كفرها! فنقول: المال الذي يعطيه الله -تعالى- الإنسان -قليلًا أو كثيرا- يعلم أن لله عليه فيه حقوقا؛ فبيدًا بحقوق الله -تعالى- عليه، وكذلك أن لأهله عليه فيه حقوقا؛ فيؤدي حقوق أهله وغيرهم، ثم يعلم بعد ذلك أن لإخوانه الفقراء ونحوهم عليه حقوقا؛ فيؤدي تلك الحقوق، ولا يقصد بعد ذلك في نفقته، ويحتجب بإفساد ذلك المال؛ حتى إذا رأى وجه من وجوه البر صرفه فيه؛ فيذل له ليعلمه يكون من الشاكرين. حقوق الله -تعالى- مثل: الزكوات، والكفارات، والصدقات، وما أشبهها. هذه لا بد أن الإنسان يخرجها من ماله؛ حتى يبارك له فيما بقي، فيحاسب نفسه، بحسب على نفسه ماذا أوجب الله علي في هذا المال؟ على فيه كذا.. وكذا من الزكوات، وكذا من النذور والكفارات؛ وكذا من النذور والكفارات؛ فبيدًا بها، ويؤديها كاملة غير منقوصة؛ وذلك من حقوق الله. كذلك -أيضا- حقوق أهله: ينفق عليهم؛ كما قال الله تعالى: { وَعَلَى الْمَوْلُودِ لَهُ رِزْقُهُنَّ وَكِسْوَتُهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ } وقال تعالى: { لِيُنْفِقْ ذُو سَعَةٍ مِنْ سَعَتِهِ وَمَنْ قُدِرَ رِزْقُهُ فَلْيُنْفِقْ مِمَّا آتَاهُ اللَّهُ لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ تَقْسًا إِلَّا مَا آتَاهَا } فينفق على أولاده؛ ولكن نفقة اقتصاد، فيعطهم حاجاتهم في المأكل، والمشرب، والملابس، والمسكن، وما أشبهها؛ فإذا أدى حقوقهم، عرف بذلك أنه أدى حقًا واجبا عليه. وكذلك -أيضا- سائر الحقوق التي تجب عليه، وبعد ذلك يعرف أن للمسلمين عليه حقًا، أن للفقراء والمساكين، والضعفاء، والمستضعفين، أن عليه حقوقا لهم؛ فيعطهم، وينفق عليهم؛ فيصل ذوي الأرحام، وينفق على ذوي القربى، وينفق على المساكين والمستضعفين. وكذلك -أيضا- يطعم من يراه أهلا للإطعام، من جار أو صديق أو رفيق أو ابن أشبه ذلك. فذلك كله من شكر نعم الله -تعالى- وإداء الحقوق عليه؛ لعل ذلك يكون سببا في البركة، سببا في أنه يبارك الله -تعالى- له فيما أبقى، ويزيده خيرا، ويخلف عليه، بتذكير قول الله تعالى: { وَمَا أَنتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَهَوَّيْ لَهُمْ ذِكْرَهُمْ إِلَى الْبُيُوتِ وَيَصْرَفُوا الْوَيْحَ الرَّازِقِينَ } أي: ما أنفقتموه في وجوه البر، وفي وجوه الخير، في الطاعات، وفيما يجبهه الله، وفيما يرضاه؛ فإن ذلك من الخير؛ فإن ذلك سبب للبركة، وسبب لنماء الأموال ووقوع البركة فيها؛ ولهذا وردت الأدلة في الترغيب في الصدقات، وما أشبهها، وأنها سبب لبقاء المال، ورد أن النبي -صلى الله عليه وسلم- قال: { ما نقص مال من صدقة، وما زاد الله عبدا بعفو إلا عزًا، وما تواضع أحد لله إلا رفعه } ؛ ما نقصت صدقة من مال، المال الذي يتصدق منه يبارك الله -تعالى- فيه؛ وذلك من شكر الله -تعالى- على هذا المال، فهذا من الشكر. وكذلك -أيضا- من الشكر: إعطاء ذوي الحاجات، وصرفه في وجوه الخير... في هذه النعمة، واستقرارها. وأما كفر هذه النعم: فإنه يكون بصرفها في معاصي الله، فالذين يصرفون الأموال في آلات الملاهي، يدعون أنهم يرفهون عن أنفسهم؛ فيشترون صورًا خلية، وأفلامًا هابطة، وكذلك -أيضا- يشترون أجهزة يستقبلون بها ما تنبه القنوات الفضائية من المنكرات وما أشبهها، يبدلون في ذلك مالا؛ ولو كان قليلا؛ ولو لم ينقص أموالهم، لا شك أنهم يعتبرون قد كفروا نعم الله؛ حيث صرفوا هذا المال -ولو قليلا- فيما يستعان به على معصية الله. وهكذا -أيضا- بقية آلات اللهو يعتبر شراؤها من كفران النعم، شراء أشربة الغناء ونحوها، وشراء أشربة الملاهي وما أشبهها؛ ذلك -بلا شك- من كفران النعم. وهكذا -أيضا- من كفران النعم: صرف الأموال فيما يستعان به على معصية الله -تعالى- كالألبسة المفسدة، أو التي فيها تشبه بالكفار، ونحوهم ككسوة كثير من النساء، وكثير من الأطفال، لا شك أن فيها إسرافا زائدا، فيعتبر ذلك من كفران النعم، فمثلا: الذين يصرفون أموالا طائلة في كسوة، قد يقوم بعضها مقامها، لا شك أن هذا من الإسراف الذي ذم الله: { وَكُلُوا وَاشْرَبُوا وَلَا تُسْرِفُوا إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ } . كما يذكر أن بعض النساء تشتري لها ثوبا بألف، أو بألفين، أو بثلاثة آلاف، لا شك أن هذا من الإسراف، وأنه من كفران نعم الله التي أعطاهم العبد، يكفي بدله الثوب الذي بمائة، أو بعشرة وعشرين، أو نحو ذلك. وهكذا -أيضا- كثير من الرجال قد تتكلف كسوته بمئات، أو نحوها، لا شك أن هذا من كفران النعم، ومن صرف الأموال في الشيء الذي غيره أفضل منه، فنصحب بمنزل ذلك، ونقول: حافظوا على أموالكم، واصرفوها في الشيء الذي ينفعكم في دنياكم، أو في آخركم. وهكذا -أيضا- الإسراف في المأكل، وما أكثر ذلك الإسراف في المأكل، وأنواع الأطعمة، وأنواع الفواكه، وأنواع الخضروات، وما أشبهها. إن صرف الأموال فيها يعتبر ضروريا؛ لأن الإنسان بحاجة إلي أن يؤمن له مأكله، ومشربه، ومطعمه وما يتقوت به؛ ولكن الزيادة على ذلك تعتبر إفسادا، وتعتبر إسرافا، وإسرافا داخلًا في هذه الآية، يقول الله تعالى: { وَلَا تَبْذُرْ تَبْذِيرًا إِنَّ الْمُبْتَدِرِينَ كَانُوا إِخْوَانَ الشَّيَاطِينِ } . فأخبر الله -تعالى- بأن النفقة تكون وسطا، لا إسراف ولا تقتير، يقول الله: { وَالَّذِينَ إِذَا أَنفَقُوا لَمْ يُسْرِفُوا وَلَمْ يَقْتُرُوا وَكَانَ بَيْنَ ذَلِكَ قَوَامًا } . لم يُسْرِفُوا أي: لم يفسدوا أموالهم، وبصرفها في الشيء الذي يضرهم، أو الذي لا ينفعهم، أو الذي فيه إنفاق للمال بغير فائدة. { وَلَمْ يَقْتُرُوا } يضيقوا على أنفسهم، ويخلوا على أنفسهم، وعلى من تحت أيديهم. { وَكَانَ بَيْنَ ذَلِكَ قَوَامًا } أي: وسطا، وخير الأمور أوسطها، لا إسراف ولا تقتير. جاءت الأدلة في النهي عن إفساد الأموال والأمر باحترامها، والإخبار بأنها إذا كُفرت فرت؛ ورد أنه -صلى الله عليه وسلم- { كان يمشي في الطريق، فرأى تمرة { تمرة ساقطة في الأرض، ولم يتركها، فرفعها، وقال: لولا أنها من الصدقة لأكلتها } وأعطاهم ما يأكلها، تمرة واحدة ما طابت نفسه أن يتركها بطونها الناس، وتلتوت بالتراب، وروي -أيضا- أنه رأى كسرة خبز، سقطت على الأرض في بيت عائشة فرفعها، وأزال ما عليها من التراب، وقال: { يا عائشة أكرمي جوار نعم الله؛ فإنها فلما نقرت عن قوم، فكادت أن ترجع إليهم { كسرة خبز، رآها على الأرض، ما سمحت نفسه أن يتركها بطونها، أو يلقتها مع القمامات، وما أشبهها؛ ذلك لأنها نعم من نعم الله تعالى؛ هناك من يحتاجها، هناك من يتناها. فنقول لأهل هذه الأموال -الذين يسرفون في الولائم والأطعمة، وما أشبهها- سواء طعام أنفسهم أو طعام من يستضيفهم، أو من يكرمونه بضيافة ونحوها- نقول لهم: اقتصدوا في النفقة، وياكم والإسراف، وإفساد الأموال؛ حتى لا تسلب عنكم ما أنتم فيه؛ فإن كثيرا وكثيرا من الدول عملوا مثل هذه الأعمال، فسلبت عنهم. كان آباؤنا يضربون المثل بالشام والهند فيقولون: الشام شامك إذا الدهر ضامك، والهند هندك إذا قل ما عندك. ثم يقولون: إنهم عندهم الثروة، وعندهم الأموال ونحوها، يذكر كثير منهم قبل خمسين أو ستين سنة، أنهم كانوا في نعم، وأنهم كانوا في رفاهية، ثم إنهم لم يشكروا نعم الله، فكانوا إذا جعلوا أنفسهم كثيرة، أطعمه من الأرز، ومن الخبز، ومن اللحوم، ومن الفواكه، وما أشبهها، وفضل منها فضلا، ماذا يفعلون بها؟ يلقتها مع القمامات، يلقتها في صناديق القمامة، وكأنها لا قدر لها، ولا قيمة لها؛ مع أنها من نعم الله -تعالى- ومن فضله الذي فضل به عليه؛ فيفعلون ذلك، ويتلفون أموالا طائلة؛ فكانت العاقبة أن ذهبت تلك الثروات، وخسروا كثيرا، وعاقبهم الله -تعالى- بأن سلبهم، أو سلب كثيرا منهم ما كانوا فيه من تلك الرفاهية وذلك الخير. ما سبب تغير أحوالهم؟ لا شك أنه المعاصي التي وقعوا فيها من الشرك، والفواحش، والرقص، والغناء، واللغو، والباطل، والزنا، والربا، والخمر، والمنكرات، والمخدرات وما أشبهها، لما أنهم أعلنوها، عوقبوا بسبب النعم. كذلك -أيضا- عدم احترام نعم الله؛ أي كونهم -مثلا- يلقتها مع القمامات، ولا يعرفون قدرها ولا أهميتها. نقول: إن هذا من كفر النعم، وإن الإنسان عليه أن يحترم نعم الله -تعالى-؛ ولو كانت قليلة؛ ولو كانت حبات من الأرز، أو نحوها؛ ثبت في الحديث أنه -صلى الله عليه وسلم- قال: { إذا أكل أحدكم، فلا يمسح يده حتى يلقها، أو يلقها حتى يلعقها بنفسه، أو يعطيها خادمه، أو ولده } يقول: العن أصابعي؛ كما عليها من الطعام، من حبات طعام مثلا أو دسم أو نحو ذلك؛ لأن هذا من نعم الله -تعالى- لم يحرص له أن يمسحها وفيها شيء من الطعام؛ لأن هذا إفساد لهذا الطعام، وهذه الحبات، ونحوها. وكذلك يقول -صلى الله عليه وسلم- { إذا سقطت لقمة أحدكم على الأرض، فليأخذها، وليمسح ما فيها من التراب والأذى، وليأكلها، ولا يدعها للشيطان } . اللقمة إذا سقطت؛ مع أنها قد تكون قليلة، وقد تسقط على الأرض؛ لأنهم في ذلك الوقت ما كان عندهم سفرة، ولا خوان -غالبا- يجلسون على الأرض، فتسقط اللقمة على الأرض، أمره بأن يأخذها وأن يزيل التراب الذي عليها، وأن يأكلها، وأنه أخبر بأنه إذا تركها؛ فإنه يكون قد تركها للشيطان. وكذلك كان يأمر بأكل ما تساقط، ما تساقط على السفرة من الحبات، يأمر بأكله، وعدم إضاعته. وهكذا -أيضا- أمر بلقن الصلحة، الصلحة التي يكون فيها الطعام، قد يكون الطعام الذي فيها طعم دسم، أو نحو، ورد في بعض الآثار: أن الصلحة تستظهر لمن يلعقها. بمعنى: أن فيها نعمة؛ ولو كان شيئا يسيرا، ليس ذلك كله لأجل المحافظة على نعم الله -تعالى- وعدم إضاعته، وعدم التعرض لإزالتها؛ فكيف كان الذين إذا عملوا وليمة صرفوا فيها أطعمة كثيرة؟ يعني: الذي يكفي -مثلا- ألفا، أو خمسمائة؛ مع أن الذين يأتونهم عشرة أو مائة أو خمسون، الطعام يكفي ثلاثمائة، أربعمائة، خمسمائة. لا شك أن هذا إسراف، وأن الواجب عليهم أن يقتصدوا، وأن يقللوا من جعل هذه الأطعمة؛ فيقتصدوا على ما هو ضروري، البقية إذا كان عندهم زيادة مال يريدون إنفاقها فإنهم يستطيعون، أو يجدون مصرفا يصرفونها فيه؛ وذلك هو شكر الله -تعالى- بها. فنقول: إن الله -تعالى- ابتلانا بما فتح علينا من هذا المال ابتلاء، فتذكر أن هذا الابتلاء؛ لأجل الاختيار، تتذكر قول سليمان - عليه السلام - لما تمت عليه النعمة قال: { هَذَا مِنْ فَضْلِ رَبِّي لِيَبْلُوَنِي أَأَشْكُرُ أَمْ أَكْفُرُ وَمَنْ شَكَرَ لِيُضَاعِفْهُ وَمَنْ كَفَرَ لَيُضَاعِفْهُ } اعترف سليمان بأن النعم التي أعطاه الله، أنها ابتلاء من الله، وأنه فضل من الله، فضل من ربي: { لِيَبْلُوَنِي أَأَشْكُرُ أَمْ أَكْفُرُ } هل أشكر نعم الله التي أعطاني أم أكفرها؟ وأخبر بأن من شكر؛ فإنما يشكر لنفسه؛ وذلك لأن الشكر تدوم به النعم.